

الحديث ذو شجون للدكتور زكي مبارك

الكتاب هو سر العظمة الأوربية — ماضينا في صحة
الكتاب — الأستاذ المهياوى — بين المدارس والكتابات

الكتاب ...

إن الكتاب هو سر العظمة الأوربية ، فما تفوقت أوروبا
إلا بفضل الحرص على مُسيرة الحيووات العقلية في الشرق
والغرب ، وما ارتفع رجل في أوروبا إلا وهو متزوّد بأصدق
وأجود ما صدر في العقول في القديم والحديث
ويستطيع من يعرف إحدى اللغات الأوربية أن يطلع على
أشهر ما جادت به القرائح في أكثر البلاد ، وهذه حقيقة يعرفها
من عاش زمناً في مدينة مثل لندن أو باريس أو برلين
الحق أننا لم نفهم أوروبا فهمًا صحيحًا ، ولم نعرف السر
في حيوياتها العارمة ، ولم نلح من خصائصها غير أطياف
إن أوروبا متزوّدة بأزواد عقلية لا تحظر لأكثر الناس
في بال ، وقد نعرف غداً أو بعد غد أن المستر تشيرشل لم تصرفه
مكاره الحرب عن صلاته بالكتاب ودور التجليد ، وقد نعرف أنه
لم يخرج من بلد إلا وفي يده كتاب ، على كثرة ما زار من
البلاد في أعوام الحرب

أوروبا المحاربة لا تخيفني ، فقد هزمتها في الحروب الصليبية ،
ولمّا تخيفني أوروبا المفكّرة ، أوروبا التي تؤلف وتقرأ وتستفيد
في كل وقت ، بلا استثناء وقت الجروب

هل تذكرين كلمة كارليل حين قال إن إنجلترا تفضل آثار
شكسبير على أقطار الهند ، لو أكرهتها الحوادث على الاكتفاء
بأحد هذين المفضّلين ؟

تلك هي العقلية الأوربية ، وذلك هو الفهم الذي يمتاز به
أولئك الناس

ماضينا في صحة الكتاب

لنا ماضى مجيد حفظه التاريخ ، فقد سبقنا أوروبا إلى تعدين

الشرق والغرب ، وخلف أجدادنا آثاراً عجز عن هونها الزمان
فكيف ظفروا بذلك الحظ من الخلود ؟

الكتاب هو السر في عظمة أجدادنا ، فقد كان فيهم من
يحمج بيت الله وهو يرى إلى غاية غير أداء فريضة الحج ، كان
يفف في عرفات للسؤال عن كتاب

وعنوان المغول على بغداد لم تسجل فظائمه في غير ظاهرة
واحدة هي تزويد أملاك دجلة بما كان في بغداد من نفائس
المؤلفات

والحريق الذي صاول الفسطاط ستين يوماً لم يذكر المؤرخون
من بلانه غير اجتياحه لذخائر المكتبات

وكان المسلمون حين يستنفرون إخوانهم للدفاع عن بلد من
بلاد الأندلس يقولون إنه وطن التوابغ من المؤلفين والشعراء .

وحين تفرّق شمل المسلمين في بعض العهود الماضية وجد
الناهبون لآثارهم العلمية والأدبية والتشريعية ما يعمّر مثات
المسكبات ، ويضمن الزاد النفيس للأفهام والعقول ، بحيث
لا تخلو مدينة من آثارهم الجياد

إن أساس المدنية يرتكز على العلم في جميع العصور ، حتى
عصور الظلم والاستبداد ، ألم تروا أن مناصرات هتلر أوحى بها
كتاب ؟

إن المدافع والعايرات والأسلحائل ليست إلا تعابير عن
جانب من طغيان القوة الفكرية ، كما أن الآداب والفنون تعبير
عن جانب من ذلك الطغيان

لا تسمعو من يشبطونكم عن الحياة الفكرية ، بحجة أن
هذا الزمن ليس زمن الفكر وإنما هو زمن القوة ، فالفكر هو
المصدر لكل قوة ، ولو تمثلت في أبشع الألوان

ومصر تتمتع اليوم بسممة طيبة من الناحية الفكرية ، وهي
تدعوك إلى مواصلة الجهاد العلمى والأدبى ، لتصلوا بها إلى
ما تسمو إليه من العزة بين كبار الشعوب

أنا لا أكتفى بأن يكون حظ مصر من المجد القديم هو
الاستاذية لفلاسفة اليونان في التاريخ القديم ، وأكره أن يكون
حظ مصر في العهد الإسلامى مقصوراً على رعايتها للمعاصرة
الإسلامية بعد سقوط بغداد

وكان المهياوى شاعراً من الطراز الجيد ، ولو جمعت قصائده الجدية لكان من مجموعها ديوان نفيس . أما قصائده الهزلية فهي غاية في اللطافة ، وكانت توقع بانتهم « الشاعر إياه » في مجلة الكشكول

وإذا كان الرجوع إلى الجرائد القديمة يُتعب من يريد معرفة القيمة الصحيحة لهذا الكاتب ، فأنا أوصي بمراجعة كتاب « الطبع في الشعر » وقد نشرته « مكتبة النهضة » ، وهو كتاب يشهد لمؤلفه بالبراعة الفائقة في شرح الدقائق من أسرار البيان

وللمهياوى كتاب اسمه « مصر في ثلثي قرن » ، وهو كتاب يصور آمال مصر وآلامها في العصر الحديث ، وفيه وثبات من الفكر ، وبارق من الخيال وقالت إنجلترا بعد رفع الحماية « الكلمة الآن لمصر » فنشر المهياوى رسالة بعنوان :

« الكلمة لمصر ، ولكن ليس لمصر أن تتكلم »

وهي رسالة شرح فيها ما كانت تعاني مصر بسبب الاحتلال وكان المنفلوطي هدفًا للنقاد في أوج شهرته الأدبية ، ولكن المهياوى تفرّد برسالة طريفة سماها « فصص المنفلوطي » وسيكون لها مكان حين يؤرخ النقد الأدبي في هذا الجيل وأول كتاب نشره المهياوى هو « الفراند » وهو مجموعة ما كتب في مطلع صباه ، ولو رجعنا إليه لرأينا على سذاجته صوراً تشهد بحساسية الإحساس وبقطة الوجدان

أخي الأستاذ المهياوى

أفي الحق أنك مت وأنى لن أجذك إن حاولت أن أراك ؟ لا يُعني أن أحمز لك فأخلق محاسن لم تكن فيك ، وإنما يعنى أن أبرز محاسنك الأصيلة على الوجه اللائق بمكانها الرفيع أفي الحق أننا لن نلتقي في الدنيا مرة ثانية ، ولن نقضى أياماً كالأيام التي قضيناها في سنتريس بين الزهر والقمر والماء ؟ أفي الحق أننا لن نتصاول بالعقول كما كنا نصنع عند التلاق ؟

تلك أيام خلّت ، ولن تعود ، فعليك وعليها تحية الشوق الذي لا يموت
لو رأيت فيك ما يعاب خلف حزنك عليك ، ولكنى لم أرك

انظروا إلى الأمام ولا تنظروا إلى الوراء ، فالفكر من حظ مصر في جميع العهود ، وسيكون لها في المستقبل تاريخ يفوق جميع التواريخ ، وستعرفون صدق هذه النبوءة بعد حين .

الأستاذ محمد المهياوى

فجميع الأدب ولجعت الوطنية في رجل كان من الأعلام بين رجال الأدب ورجال الوطنية ، وهو أخونا الأستاذ محمد المهياوى ، على روحه ألف تحية وألف سلام

مات المهياوى بعد أن كافح في سبيل الأدب وفي سبيل الوطن أعواماً نيفت على الثلاثين . والذين عرفوا المهياوى كما عرفته يؤمنون بأنه كان قوة وطنية وأدبية قليلة الأمثال نشأ المهياوى نشأة أزهرية - وكان أبوه من كبار العلماء بالأزهر الشريف - ولكنه تمرد على الأزهر في وقت مبكر ، وانطلق إلى ميدان الحياة الأدبية والوطنية بقوة وعنف ، ومضى يصاول ذات اليمين وذات الشمال ، إلى أن ظفر من قلوب عارفيه بمنزلة لا يظفر بمثله إلا كرام الكاتين

يجب أن تقول كلمة الحق في الأستاذ المهياوى ، بعد أن رأينا أنه لم يُرَثْ إلا بكلمات قصار لا تنقل من شمائله غير ملامح غامضة الماني ، وبعد أن رأينا أصدقاء يمتنون على الوفاء بأنهم جازفوا براحتهم فشيّعوا جنازته في عصرية وهاجّة القليظ ! كان المهياوى يحدّ في كل ما يكتب ، وكان جِدُّهُ أُرّاً من صدق العقيدة في الأدب والوطنية والدين ، وكان مع جده الصارم غاية في حلاوة الدعابة ، فهو المنشيء لأكثر دطابات « الكشكول » يوم كان لمجلة الكشكول سلطان

وفي الأعوام التي اشتد فيها الخلاف بين الحزب الوطنى والوفد المصرى كان المهياوى أخطر كاتب نافح عن الحزب الوطنى ، وقد أبلى بلاءً حسناً في مقاومة « مشروع ملنر » ، ولم يتركه إلا بعد أن حرقه كل ممزق ، ومجموعة « جريدة الأمة » تشهد بصدق ما نقول -

اشترك المهياوى في تحرير كثير من الجرائد والمجلات ، وكتب في الجد وفي الهزل ، ولكنه في جميع أحواله كان قوى النطق ، متين الأسلوب

أنا أريد النص على أن الإجازات ليست من الأوقات الضوائع ، كما يقوم بعض الناس ، وإنما هي مواسم لتكوين الأبدان والأرواح والأحاسيس ، وتلاميذ المدارس أحوج إليهما من طلبة الكليات ، وما وقع في هذه السنة وقع بالمصادفة ، ولكني أحب أن يكون واجباً تراعيه في الأعوام المقبلة

هل تذكر أن إجازات المدارس الأولية زادت في هذا العام عن ثلاثة أشهر ، وأن ناساً عدواً ترفقاً خرج عن الحدود ؟ أنتم تذكرون هذا ، ولكنكم تنسون أن الأطفال بالمدارس الأولية كانوا يمدون إلى الدروس في شهر أغسطس وهو « آب » ، اللهم ! ، كما يسميه أهل الشام والعراق

ترفقوا قليلاً بالأطفال ، واذكروا أنهم في عهد التكوين ، وأن راحتهم من الدروس غذاء يفوق كل غذاء

ثم ما ذا ؟ ثم انتهز الفرصة فأتحدث عن مشكلة تمانيتها المدارس ولا تمانيتها الكليات ، وسأفصل حديثها بدون إسهاب :

هذا مدرس عينته الحكومة بمدرسة ابتدائية وفرضت عليه أن يلقى أربعة وعشرين درساً في الأسبوع ، فاحتمل العبء راضياً لا كارهاً لأنه في عنفوان الشباب

وهذا المدرس نفسه ظل يخدم العلم بالمدارس الابتدائية إلى أن شارف التاسعة والخمسين ، فكيف يجوز أن يحمل من أعباء الدروس ما كان يحمل قبل أن يصل إلى الثلاثين ؟

عليه أن يحتمل أو يعتزل ، فالمدارس تعرف التلاميذ ولا تعرف المدرسين ، لأن نتائج الامتحان هي العنوان ! ولو أنها خففت العبء عن المدرس الذي تقدمت به السن لقدّم لها منافع تفوق الحدود

المدرسة الفلانية هي أولى المدارس ، لأن تلاميذها بلغوا حدود التفوق ، ولم تكن أولى المدارس لأن مدرسيها ظلوا من نكد العيش في أمان

التلميذ هو المقصود بالمعطف والرعاية ، أما المدرس فهو جلود لا يجوز عليه الإفضال

هو مدرس ، ومهنة التدريس « مهنة بلا مجد » فليصبر كارهاً على جدول كان يطيقه قبل الثلاثين ، وليقل « راضياً » إنه يطيقه في التاسعة والخمسين !

إلى من توجه القول ؟

إلا روحاً أرق من الزهر وأقسي من الزمان ، وتلك هي التخصيص الأساسية لأحرار الرجال

كنا صديقين ، وكنت أنت الأكرم والأطيب ، فكيف أجزيك وقد ضاعت فرص الجزاء ؟

وهل تنتفع بكلمة في رثائك وقد مضيت إلى نعيم لا يعادله نعيم ؟ إن موتك دليل على خلود الروح ، فاجوز في نظر العقل أن تكون نهايتك هي النهاية ، وقد قضيت حياتك في شقاء بسبب الحرص على صدق الوطنية وصدق اليقين

هل تعرف « هيميا » أنك نقشت اسمها على جبين الزمان ؟ وهل تعرف « مصر » أنها جُمعت فيك ؟ وهل تعرف قيثاره الشعر أنها فقدت وترّاً كان غاية في حنان الرنين ؟

هذا ما أملك في رثائك ، أيها الصديق الغالي ، وهو أقل مما يجب لك ، وعلى عهد الله أن أشيد بذكراك إلى آخر الزمان

بجمع المدارس والكليات

بدت في هذا العام ظاهرة تستحق التسجيل ، لأنها لم تقع من قبل ، وهي تأخر المدارس عن الكليات في العودة إلى استئناف الجهاد . وعجاجة الجهل أشرف ضروب الجهاد

أبكون ذلك لأن الطلبة أقوى من التلاميذ ؟ أبكون ذلك لأن الأساتذة أحرص من المدرسين ؟

لا هذا ولا ذاك ، وإنما هي فرصة أتاحها القدر لتعرف كيف أسرفنا في استعجال الناشئين إلى ساحات النضال الطالب في الكلية غير التلميذ في المدرسة ، فالأول جاز دور التكوين الجسماني ، فمليه أن يحمل الواجب في صدره وإن كان في إجازة رسمية . أما التلميذ فلا يزال جسمه في دور التكوين ، وراحته من متاعب الدرس تعود عليه بالنفع الجزيل

الطالب يعود إلى الكلية وهو على بينة مما سيدرس ، فهو يعود جذلان ، أما التلميذ فيجهل ما سيعاني من مصاعب الدروس ، لأنه تلميذ ، والمهاج يفرض قرصاً على التلاميذ

والأستاذ بالكلية غير المدرس بالمدرسة ، فالأول يضع بنفسه موضوعات الدروس كما يشاء ، وفي حدود ما يطيق ، أما الثاني فيواجه موضوعات يوجبها « الجدول » ، وقد يكون فيها ما ألقاه بالنص والفص عدداً من السنين

أما بعد فإذ أريد أن أقول ؟